طرائف عن الحب

حيلة عاشق:

كان لأبي العتاهية الشاعر العباسي نوادر لطيفة مع عتبة جارية المهدي، تدل على كمال ظرفه؛ ومن ذلك ما ذكره الخطيب في تاريخ بغداد قال:

إن أبا العتاهية لما ألح في أمر عتبة لأول دخوله بغداد، ولم ينل منها شيئًا، وجدها يومًا قد جلست في أصحاب الجوهر، فمضى فلبس ثياب راهب، ودفع ثيابه إلى إنسان كان معه، وسأل عن رجل كبير في السوق، فدُل على شيخ صائغ، فجاء إليه فقال: إني قد رغبت في الإسلام على يدي هذه المرأة؛ يعني عتبة.

فقام الشيخ الصائغ وجمع جماعة من أهل السوق، وجاء إلى عتبة فقال لها: إن الله قد ساق إليك أجرًا، هذا هو راهب قد رغب في الإسلام على يديك. فقالت: هاتوه. فدنا أبو العتاهية منها وهو في زي الراهب فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله. ثم قطع الزنار، ومال على يدها فقبلها.

فلما فعل ذلك، رفعت البُرنس عن وجهه، فعرفته وقالت: نحوه، لعنه الله! فقالوا لها: لا تلعنيه فقد أسلم. فقالت: إنما فعلت ذلك لقذره. فعرضوا عليه

كسوة، فقال: ليس لي حاجة إلى هذه، وإنما أردت أن أشرفُ بولائها، فالحمدُ لله الذي منَّ عليَّ بحضوركم.

وجلس أبو العتاهية، فجعلوا يعلمونه (الحمد) وصلى معهم العصر، وهو في ذاك ينظر إليها، لا تقدر له على حيلة!

وحدَّث المبرد: أن ريطة بنت أبي العباس السفاح، وجهت إلى عبد الله بن مالك الخزاعي في شراء رقيق للعتق، وأمرت جاريتها عتبة -وكانت لها ثم صحبت الخيزران بعدها- أن تحضر ذلكِ. فإنها لجالسة إذ جاء أبو العتاهية في زي متنسك فقال لها: جلعني الله فداك، شيخ ضعيف لا يقوى على الخدمة، فإن رأيت -أعزك الله- شرائي وعتقي، فعلت مأجورة. فأقبلت على عبد الله فقالت: إني لأرى هيئة جميلة، وضعفًا ظاهرًا، ولسانًا فصيحًا، ورجلًا بليغًا، فاشتره وأعتقه. فقال: نعم أفعل. ثم قال لها أبو العتاهية: أتأذنين لي -أصلحك الله- في تقبيل يدكِ؟ فأذنت له، فقبَّل يدها وانصرف. فضحك عبد الله بن مالك وقال لها: أتدرين مَن هذا؟ فقالت: لا. قال: هذا أبو العتاهية، وإنما احتال عليك حتى قبَّل يدك!

بين الحب والمال:

وكان أبو العتاهية قد قصد بغداد من الكوفة، مع زميلين له، ليستفيد بشعره عند أمرائها، ولم يكن لهم في بغداد من يقصدونه، فنزلوا غرفةً بالقرب من الجسر، وكانوا يبكرون فيجلسون بالمسجد الذي بباب الجسر في كل غداة،

فمرت بهم يومًا امرأة راكبة، معها خدم سودان فقالوا: مَن هذه؟ قالوا: خالصة. فقال أحدهم: قد عشقت خالصة. وعمل فيها شعرًا أعانوه عليه.

ثم مرت بهم أخرى، راكبة أيضًا، ومعها خدم بيضان. فقالوا: مَن هذه؟ قالوا: هذه عتبة، فقال أبو العتاهية: قد عشقت عتبة. وعمل فيها شعرًا.

ولم يزالوا كذلك، حتى شاع الشعر المصنوع إلى الجاريتين، وتحدث الناس بعشق أبي العتاهية وزميله لهما. فقال صاحبا الجاريتين: نمتحن العاشقين بمال على أن يدعا التعرض للجاريتين، فإن قبلا المال كانا مستأكلين، وإن لم يقبلاه كانا عاشقين.

فلما كان الغد، مرت عتبة فعرض لها صاحبها، فقال له الخدم: اتبعنا، فتبعهم، فمضت به إلى منزل خليط لها يزار، فلما جلست دعت به فقالت له: يا هذا، إنك شاب، وأرى لك أدبًا، وأنا حرمة خليفة. وقد تأنيتك، فإن أنت كففت وإلا أنهيت ذلك إلى أمير المؤمنين، ثم لم آمن عليك.

فقال لها أبو العتاهية: فافعلي، بأبي أنت وأمي، فإنك إن سفكت دمي أرحتني، فأسألك بالله إلا فعلت ذلك إذا لم يكن لي فيك نصيب!

فقالت له: أبقِ على نفسك، وخذ هذه الخمسمائة دينار، واخرج عن هذا البلد. فلما سمع ذكر المال ولى هاربًا، فقالت: ردوه، وألحت عليه فيها. فقال لها: جعلتُ فداك، ما أصنع بعرض زائلٍ من الدنيا وأنا لا أراك؟ والله إنك لتبطئين يومًا واحدًا عن الركوب فتضيق عليَّ الدنيا بما رحبت. فزادت له في الدنانير، وما زالت تلح عليه فلا يزداد إلا رفضًا.

قليل منك يكفيني:

ومن ألطف ما قاله أبو العتاهية في عتبة قوله:

بـالله يـا حلـوة العينـين زوريـني ... قبـل المـمات وإلا.. فاسـتزيريني!
هـذان أمـران فاختـاري أحـبهما ... إليك أو.. لا فداعي الموت يدعوني
إن شئت موتًا فأنت الدهر مالكةٌ ... روحي وإن شئت أن أحيا فأحييني
يـا عُتب مـا أنـت إلا بدعـةٌ خُلقـت ... من غير طين وخلق الناس من طين
إني لأعجـب مـن حـبٍّ يقربنـي ... مـمـا يباعـدني عنـه ويُقـصيني
لـو كـان يُنـصفني ممـا كلفـت بـه ... إذن.. رضيت وكان النصف يرضيني
يـا أهـل ودي.. إني قـد لطفـت بكـم ... في الحب جهدي ولكـن.. لا تبالوني
الحمـد لله قـد كنـا نظنكمـو ... مـن أرحـم النـاس طـرا بالمساكين
أمـا الكثـير فـلا أرجـوه منـك ولـو ... أطمعتنـي في قليـلٍ كـان يكفينـي

وله فيها قصائد كثيرة أخرى، يقول في إحداها:

ألا يـا عُتـب يـا قمـر الرصـافه ... ويـا ذات الملاحظـة والنظافـه
رزقـت مـودتي ورُزقـت عطفـي ... ولم أُرزق فـديتك منـك رافـه
وصرت مـن الهـوى دنفًـا سـقيمًا ... صريعًـا كالـصريع مـن الـسلافه
أظـلُّ إذا رأيتـك مُـستكينًا ... كأنـك قـد بعثـت عـليَّ آفـه

ومن قوله فيها أيضًا:

قـال لي أحمـدٌ ولم يـدر مـا بي ... أتُحـب الغـداة عُتبـة حقًّـا؟
فتنفـست ثـم قلـت: نعـم حبًّـا ... جـرى في العـروق عرقًـا فعرقًـا
لـو تجـسين يـا عتيبـة قلبـي ... لوجـدت الفـؤاد قرحًـا.. تفقـا

قد لعمري عل الطبيب وعل!! أحسل عنى مما أتاسي وألقى
ليتني مت فاسترحت فإني أبدًا ما حييت منه ملاقى

وفيها يقول:

عُتبَ ما للخيال خبرينى ومالي؟
لا أراهُ.. أتاني زائرًا.. مُذ ليالِ
لو.. رآني صديقي رق لي أو رثى لي
أو.. يراني عدوى لان من سوء حالي

من الحب إلى الزهد:

وحدث أبو العباس: أحمد بن يحيى ثعلب، قال:

كان أبو العتاهية قد أكثر مساءلة الرشيد في عُتبة فوعده بتزويجها، وأنه سيسألها في ذلك فإن أجابت جهزها له وأعطاه مالًا عظيمًا. ثم إن الرشيد سنح له شغل استمر به، فحجب أبو العتاهية عن الوصول إليه، فدفع إلى مسرور الكبير ثلاث مراوح، فدخل بها على الرشيد وهو يبتسم، وكانت مجتمعة، فقرأ على واحدة منها مكتوبًا:

ولقد تنسمت الرياح لحاجتي فإذا لها من راحتيك شميمُ

فقال الرشيد: أحسن الخبيثُ. إذن.. عليَّ بالثانية. وكان مكتوبًا عليها:

أعلقتُ نفسي من رجائك ماله عنقٌ يحُثُّ إليك بي ورسيمُ

فقال الرشيد: عليَّ بالثالثة، وكان مكتوبًا عليها:

ولـربما استيأسـت ثـم أقـول: لا إن الـذي ضـمن النجـاح كـريم

فقال الرشيد: قاتله الله، ما أحسن ما قال، ثم دعابه، وقال له: قد ضمنت لك يا أبا العتاهية، وفي غدٍ نقضي حاجتك إن شاء الله، وبعث إلى عتبة وقال لها: إن لي إليك حاجة، فانتظريني الليلة في منزلك.

فأكبرت عتبة ذلك وأعظمته، صارت إليه تستعفيه، فحلف ألا يذكر لها حاجته إلا في منزلها.

فلما كان الليل سار إليها ومعه جماعة من خواص خدمه، فقال لها: لست أذكر حاجتي أو تضمنين قضائها؟ قالت: أنا أمَتُك، وأمرك نافذٌ فيَّ.. فيما خلا أمر أبي العتاهية، فإني حلفت لأبيك رضي الله عنه بكل يمين يحلف بها برٌّ وفاجر، وبالمشي إلى بيت الله الحرام حافية، كلما انقضت عني حجةٌ وجبت عليَّ أخرى، لا أقتصر على الكفارة، وكلما أفدت شيئًا تصدقت به، إلا ما أصلي فيه.

وبكت بين يديه، فرق لها ورحمها، وانصرف عنها.

وغدا عليه أبو العتاهية، فقال له الرشيد: والله ما قصرت في أمرك، ومسرور وحسين ورشيد وغيرهم شهود لي بذلك. وشرح له الخبر.

قال أبو العتاهية: فلما أخبرني الرشيد بذلك، مكثت مليًّا لا أدري أين أنا قائم أو قاعد؟ قلت: الآن يئست منها إذ ردتك، وعلمت أنها لا تجيب أحدًا بعدك.

ثم لبس أبو العتاهية الصوف، وتزهد، وقال في ذلك شعرًا كثيرًا منه قوله:

قطعت منك حبائل الآمال وحططت عن ظهر المطيّ رحالي
ووجدت برد اليأس بين جوانحي فغنيتُ عن حلٍّ وعن ترحال

وروى أبو سلمة الغنوي أنه قال لأبي العتاهية: ما الذي صرفك عن قول الغزل إلى قول الزهد؟ فقال أبو العتاهية: إذن والله أخبرك، إني لما قلت:

الله بيني وبين مولاتي أبدت لي الصد والملالاتِ
منحتها مهجتي وخالصتي فكان هجرانها مكافاتي!
هيمني حبها وصيرني أحدوثةً في جميع جاراتي

رأيت في المنام تلك الليلة، كأن آتيًا أتاني فقال: ما أصبت أحدًا تدخله بينك وبين عتبة، يحكم لك عليها بالمعصية إلا الله تعالى؟!.. فانتبهت مذعورًا: وتبت إلى الله تعالى من ساعتي من قول الغزل.

معي بين أضلعي:

المحبة هي بذلك المجهود فيما يرضي الحبيب[1]. وقيل: هي سكون بلا اضطراب، واضطراب بلا سكون. يضطرب القلب فلا يسكن إلا إلى محبوبه، ولا يزال يضطرب شوقًا إليه حتى يسكن عنده. وهذا معنى قولهم: هي حركة القلب على الدوام إلى المحبوب، وسكونه عنده. وقيل: هي مصاحبة المحبوب على الدوام. كما قيل:

ومن عجبٍ أني أحِنُّ إليهم وأسأل عنهم من لقيت وهم معي
وتطلبهم عيني وهُم في سوادها ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي

(١) في روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص٢٩.

يرى الفؤاد الروحين يمتزجان:

وقال ابن الرومي:

أعانقهـا والـنفس بعـد مـشوقةٌ إليهـا وهـل بعـد العنـاق تـدان؟
وألـثم فاهًـا كـي تـزول صـبابتي فيـشتد مـا عنـدي مـن الخفقـان
ولم يكُ مقدار الذي بي من الجوى ليـشفيه مـا ترشـف الـشفتان
كـأن فـؤادي لـيس يـشفي غليلـه سـوى أن يـرى الـروحين يمتزجـان

لئن ساءني لقد سرني:

وقال عبد الله بن الدمينة:

ولـو قلـت: طـأ في النـار، أعلـمُ أنـه رضـا لـك أو مُـدن لنـا مـن وصـالك
لقـدمتُ رجـلي نحوهـا فوطئتهـا هُدى منك لي أو ضـلةً من ضـلالك
لـئن سـاءني أن نلتنـي بمـساءةٍ لقـد سرني أني خطـرتُ ببالـك

العشق عفة ونزاهة:

قال الشاعر:

إذا كـان حـظ المـرء ممـن يحبـه حرامًـا فحظـي مـا يجـل ويجمـل
حـديثٌ كـماء المـزن بـين فـصوله عتـاب بـين حـسن الحـديث يُفـصَّلُ
ولـثم فـم عـذب اللثـات كـأنما جنـاهن شـهدٌ قُـتَّ فيـه القرنفـل
ومـا العـشق إلا عفـة ونزاهـة وأنـسُ قلـوبٍ أُنـسهن التغـزل
وإني لأستحيي الحبيب من التي تُريـبُ وأدعـى للجميـل فأجـلُ

الطرف رسولٌ رائدٌ للقلب:

قال الأصمعي: رأيت جارية في الطواف كأنها مهاة، فجعلتُ أنظر إليها وأملأ عيني من محاسنها، فقالت لي: يا هذا ما شأنك؟ قلت: وما عليك من النظر؟ فأنشأت تقول:

وكنت متى أرسلت طرفك رائدا ... لقلبك يوما، أتعبتك المناظرُ
رأيت الذي لا كله أنت قادرٌ ... عليه، ولا عن بعضها أنت صابرُ

وقال الفرزدق:

تزود منها نظرةً لم تدع له ... فؤادًا ولم يشعر بما قد تزودا
فلم أر متقولا، ولم أر قاتلا ... بغير سلاحٍ مثلها حين أقصدا

وقال آخر:

ومن كان يؤتى من عدو وحاسدٍ ... فإني من عيني أتيت ومن قلبي
هما اعتوراني: نظرةٌ ثم فكرةٌ ... فما أبقيا لي من رقادٍ ولا لب

وقال ابن المعتز:

متيمٌ يرعى نجوم الدجى ... يبكي عليه رحمةً عاذله
عيني أشاطت بدمي في الهوى ... فابكوا قتيلًا بعضه قاتله

وقال الأرجاني:

تمتعتما يا مُقلتي بنظرةٍ ... وأوردتما قلبي أمر الموارد
أعيني كفا عن فؤادي فإنه ... من الظلم سمى اثنين في قتل واحد

وقال آخر:

عاتبتُ قلبي لما ... رأيت جسمي نحيلا
فألزم القلب طرفي ... وقال: كنت الرسولا
فقال طرفي لقلبي ... بل كنت أنت السؤولا
فقلت: كفا جميعا ... تركتماني قتيلًا!

لذة الحب كلها:

قال الشيخ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية:

(ليس للقلب والروح ألذ ولا أطيب، ولا أحلى ولا أنعم، من محبة الله، والإقبال عليه، وعبادته وحده، وقرة العين به، والأأنس بقربه، والشوق إلى لقائه ورؤيته. وإن مثقال ذرة من هذه اللذة لا يعدل بأمثال الجبال من لذات الدنيا).

وقال بعض العارفين: (من قرت عينه بالله قرت به كل عين. ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، ويكفي في فضل هذه اللذة وشرفها أنها تخرج من القلب ألم الحسرة على ما يفوت من هذه الدنيا، حتى إنه ليتألم بأعظم ما يلتذ بها أهلها ويفر منه فرارهم من المؤلم. وهذا موضعٌ الحاكم فيه الذوق لا مجرد لسان العلم).

وكان بعض العارفين يقول: مساكين أهل الدنيا، خرجوا من الدنيا ولم يذوقوا طيب نعيمها. فيقال له: وما هو؟ فيقول: محبة الله والأنس به والشوق إلى لقائه، ومعرفة أسمائه وصفاته.

وقال آخر: والله إنه ليمر بالقلب أوقات، اقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذه الحال، إنهم لفي عيشٍ طيبٍ. وأنت ترى محبة من محبته عذاب القلب والروح كيف توجب لصاحبها لذة يتمنى معها أنه لا يفارق من أحبه. كما قال شاعر الحماسة:

تشكى المحبون الصبابة ليتنى ... تحملت ما يقلون من بينهم وحدي
فكانت لقلبي لذة الحب كلها ... فلم يلقها قبلي محبٌّ ولا بعدي!

أحسنت زيدي:

قال عبد الله بن المبارك: عشق هارون الرشيد جاريةً من جواريه، فأرادها، فقالت: إن اباك مسني. فشغف بها، وقال فيها:

أرى ماء وبي عطش شديدٌ ... ولكن لا سبيل إلى الورود
أما يكفيك أنك تملكيني ... وأن الناس كلهم عبيدي
وأنك لو جهدت على تلافى ... لقلت من الرضا: أحسنت زيدي

لذة اللقاء شفاء:

وذكر العتبي أن شابًّا من ولد عثمان، وشابّا من ولد الحسين، خرجا يريدان موضعا لهما، فنزلا تحت سرحةٍ، فأخذ أحدهما ورقة فكتب عليها:

خبرينا خصصت بالغيث يا سر ... حُ، بصدقٍ، والصدق فيه شفاء

وكتب الآخر:

هل يموت المحب من الم الحـ ... ـبِّ ويشفى من الحبيب اللقاء

ثم مضيا، فلما رجعا وجدا مكتوبا تحت ذلك:

إن جهـلا سـؤالك السـرح عـما ... لـيس يومـا عليـك فيـه خفـاءُ
لـيس للعاشـق المحـب مـن الحُـ ... ـب سـوى لـذة اللقـاء شـفاء

دعاء في الطواف:

وقال أبو المنجاب: رأيت في الطواف فتى، نحيف الجسم، بين الضعف، يلوذ ويتعوذ ويقول:

وددت بـأن الحـب يجمـع كلـه ... فيقـذف في قلبـي، وينغلـق الـصدر
فلا ينقضي ما في فؤادي من الهوى ... ومن فرحي بالحب أو ينقضي العمرُ

فقلت: يا فتى، ما لهذه البنية حُرمةٌ تمنعك عن هذا الكلام؟ فقال: بلى والله، ولكن الحب ملأ قلبي بفرح التذكر، ففاضت الفكرة في سرعة الأوبة إلى من لا يشذ عن معرفة ما بي. فتمنيت المنى. والله ما يسرني بما في قلبي منه ما فيه أمير المؤمنين من المُلك. وإني أدعوالله أن يثبته في قلبي عمري، ويجعله ضجيعي في قبري، دريتُ به أو لم أدرِ. هذا دعائي، أو انصرف من حجتي. ثم بكى. فقلت: ما يبكيك؟ قال: خوف ألا يستجاب دعائي، وله قصدت، وفيه رغبت!

محبة الأعداء:

من الكلمات المأثورة عن السيد المسيح عليه السلام قوله: (أحبوا أعداءكم).

وقال دعبل الخزاعي:

أشبهت أعدائي فصرت أحبهم ... إذ كان حظي منك حظي منهم
أجد الملامة في هواك لذيذة ... حبًّا لذكرك فليلمني اللوم

وقال آخر:

من كان يشكر للصديق فإنني ... أحبو بصالح شكري الأعداء
هم صيروا طلب المعالي ديدني ... حتى وطئت بسنعلي الجوزاء
ولربما انتفع الفتى بعدوه ... والسم أحيانا يكون شفاء

وقال آخر:

عداي لهم فضلٌ عليَّ ومنةٌ ... فلا قطع الرحمن عني الأعاديا
هم بحثوا عن زلتي فاجتنبتها ... وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا

وقال أحد الشعراء:

سررت بهجرك لما علمت ... أن لقلبك فيه سرورا
ولولا سرورك ما سرني ... ولا كنت يومًا عليه صبورا

المصادر والمراجع

جميع المصادر و المراجع مأخوذة من كتب مطبوعة ومخطوطة من رصيد الخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية وهي:

١- العقد الفريد

٢- خلاصة الأثر

٣- أمالي ابي القاسم الزجاجي

٤- الإسعاف شرح شواهد الكشاف

٥- المضاف والمنسوب

٦- الحيوان للجاحظ

٧- نفح الطيب

٨- وفيات الأعيان لابن خلكان

٩- خزانة الأدب للبغدادي

١٠- لوعة الشاكي ودمعة الباكي للصفدي

١١- طوق الحمامة في الألفة و الألاف

١٢- سبحة المرجان

١٣- شرح شواهد التحفة الوردية

١٤- عيون التواريخ

١٥- خاص الخاص للثعالبي

١٦- مخطوط رقم ٦٤٨ شعر تيمور

١٧- أمالي ابي علي القالي

١٨- التبريزي على الحماسة

١٩- سحر العيون

٢٠- فوات الوفيات

٢١- اليتيمة للثعالبي

٢٢- بغية الوعاة

٢٣- كتاب الترقيص ضمن كتاب اتفاق المباني وافتراق المعاني

٢٤- إرشاد الأديب

٢٥- الأغاني

٢٦- العزيز المحلى

٢٧- علم الدين لعلي باشا مبارك

٢٨- الروض الأنف

٢٩- الكامل لابن الأثير

٣٠- بدائع الفوائد

٣١- روضة الأعيان للتراجم

٣٢- روضة المحبين ونزهة المشتاقين